

السلطة والعنف في التاريخ الإسلامي

الدولة الأموية أنموذجا

عبد اللطيف الحناشي
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

تقديم:

إن الإسلام دين سماوي توحيدي يستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة؛ وهما المصدران الأساسيان للتشريع عند المسلمين، وللاسترشاد بهما لفهم دينهم، وتوجد إلى جانب ذلك التجربة التاريخية للمسلمين في ظل الحكم السياسي الذي يستمد شرعيته من الإسلام.

وعلى الرغم من اتفاق كل المسلمين على اعتبار القرآن الكريم مصدرًا أساسيًا غير أن الحديث والسنة لا تتمتعان بالإجماع الكامل، أما التجربة التاريخية للمسلمين فعادة لا يُستند إليها أنموذجًا إلا في حالات نادرة جدًا، ومن جانبها الإيجابي بالتوازي مع اعتبار "نظام الحكم الإسلامي" كما جاء به القرآن الكريم وحسب التجارب التاريخية⁽¹⁾ نظامًا تتوفر فيه كل أسس المواطنة والمساواة والعدل والحرية، دون بذل جهد لإبراز وشرح تنافر النص الأيديولوجي مع الواقع المعيش أو التجربة التاريخية بما هي تجربة إنسانية تتحكم فيها عدة عوامل وتوجهها عدة مصالح واعتبارات.

وقد أنجز عدد من المفكرين والباحثين العرب دراسات قيمة حول حركات الاحتجاج الاجتماعي والسياسي والفكري والجوانب الإيجابية النيرة للحضارة العربية الإسلامية،⁽²⁾ غير أنه وبالرغم من الأهمية المؤكدة لكل تلك الإنجازات العلمية والمعرفية فإن البحث في قضايا تتعلق بالسلوك السياسي للحكام المسلمين وردود فعل قوى اجتماعية تجاه ذلك السلوك كان محدودًا، والحال أن "مقام الخلافة الإسلامية كان منذ الخليفة الأول أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، وإلى يومنا هذا عرضة للخارجين عليه، المنكرين له..."، بل يكاد التاريخ الإسلامي لا "يعرف خليفة إلا عليه خارج، ولا جيلًا من الأجيال مضى دون أن يشاهد مصرعًا من مصارع الخلفاء"⁽³⁾ وفي مواجهة تلك المعارضة لم يكن للسلطة من خيار لفض الخلاف مع معارضيهما إلا استخدام العنف المفرط، فلم "يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف والجيش المدجج والبأس الشديد"⁽⁴⁾.

وبغض النظر عن كل ذلك سنحاول البحث في ظاهرة العنف السياسي كما تجلت في التجربة السياسية للخلافة الإسلامية، انطلاقًا من ممارسة الدولة الأموية (41 هـ - 132 هـ / 661 - 750 ميلادي) فبقيامها اتخذت الدولة، التي استندت إلى الدين الإسلامي، وضعها الطبيعي، وباعتبار أن ما تم في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو من "خوارق العادة" ومن بعده "انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة وتراجع الحكم بعض الشيء

¹ - يتم التركيز خاصة على فترة صدر الإسلام بالإضافة لسلوكيات بعض الخلفاء كعمر ابن عبد العزيز.

² - برزت عدة دراسات وبحوث منذ أواسط السبعينيات اهتمت بالتراث العربي الإسلامي، وحاولت إبراز الجوانب الإنسانية و"التقدمية" في موازاة بداية صعود الإسلام السياسي بمختلف توجهاته ومدارسه.

³ - عبد الرازق (علي): الإسلام وأصول الحكم، دراسة ووثائق بقلم محمد عمارة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1972، ط 1، ص 127

⁴ - المرجع نفسه، ص 129

وتختلف أشكال العنف وممارسته وتتغير من سلطة إلى أخرى تبعاً للظرفية التاريخية ولطبيعة السلطة في حد ذاتها والأسس الأيديولوجية التي تستند عليها، ومنها الأنظمة التي قامت على خلفية أو أساس ديني أو على شرعية دينية، فكما يمكن أن يستخدم الدين أداة سيطرة وإخضاع ومصالحة مع الواقع يمكن أيضاً أن يتحول إلى أداة تحريض وتمرد.

وقد تكون ممارسة العنف في ظل الدولة التي تتدثر بالدين أكثر كثافة وأشد ضراوة من الدول الأخرى التي لا تستند إلى مرجعية دينية، إذ من السهل على الأولى أن تجد المبررات الدينية الكافية لممارسة فعلها ذلك من خلال استخدام النصوص الدينية وتوظيفها لممارسة عنفها وإحكام سيطرتها.⁽⁹⁾

وتشير بعض الدراسات إلى أن دولة الخلافة الإسلامية تأسست على "مبدأ الغلبة والقهر وأن عروشها قد لم يرتفع إلا على "رؤوس البشر ولم (لا) يستقر إلا فوق أعناقهم.." ⁽¹⁰⁾ ولكن مهما بلغ حجم قهرها واستبدادها أو تقلص، إنما كانت تستند على الدين، وتستمد منه شرعيتها وادعاءها تطبيق الشريعة بهدف ضمان استمرارها والحفاظ على أمنها ووجودها.⁽¹¹⁾

بؤادر العنف السياسي في صدر الإسلام⁽¹²⁾

1. العنف أداة للقضاء على المعارضة وترسيخ الولاء:

يبدو أن اقتران الدين بالسياسة في تاريخ الإسلام كان أحد العوامل التي ساعدت على اختلاف المسلمين كما تمت إدارة تلك الاختلافات، في الغالب الأعم، عن طريق القوة والعنف والقهر، يقول الشهرستاني في هذا الصدد إن "أعظم خلاف بين الأمة خلافة الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سلّ على الإمامة في كل زمان.." ⁽¹³⁾ وتشير المصادر التاريخية إلى أن العنف السياسي قد مورس مباشرة بعد موت الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذ اقترنت مبايعة الصحابي أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، (50 ق.هـ - 13 هـ / 573 م - 634 م) بالعنف، ومن ذلك أن مرشح الأنصار وزعيمهم ومنافس أبي بكر قد تعرض للركل من قبل مجموعة مساندة لأبي بكر يقودها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وعندما نبهه بعض الناس لذلك قال عمر

⁹ - وهذا عنصر مشترك بين كل الدول التي استندت على خلفية دينية مسيحية أو إسلامية في كامل الحقب التاريخية إلى اللحظة الراهنة

¹⁰ - عبد الرازق (علي): الإسلام وأصول الحكم.. مرجع سبق ذكره، ص 12

¹¹ - العروبي (عبد الله): مفهوم الدولة، ط 2، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - المغرب 1983، ص ص 115-116..

¹² - سنستبعد من هذا البحث الحديث عن العنف الذي مارسه المعارضة. ففي سياق احتكارها للعنف تولد أو تنتج الدولة معارضة لنظامها يمارس بدوره عنفاً لا يقل بشاعة عن عنف السلطة.

¹³ - الشهرستاني (محمد عبد الكريم): الملل والنحل، المقدمة الرابعة: في بيان أول شبهة وقعت في الملة الإسلامية وكيفية انشعابها ومن مصدرها ومن مظهرها، ج 2، ص 20

الباقيين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.."⁽²⁴⁾. وما أوصى به عمر قد حدث، ويظهر أن وصيته أرهبت الحاضرين والغائبين وقلصت من حرية اختيارهم للخليفة الكفاء. وبعد اغتيال عمر تم اختيار عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الذي أنكر عليه الناس سياسته العنيفة، ومن ذلك "مجاوزته الخيزران إلى السوط..." فهو أول من ضرب بالسياط ظهور المسلمين⁽²⁵⁾ فقام الصحابي عمار بن ياسر⁽²⁶⁾ بنقل احتجاج الناس إلى عثمان مكتوبًا وكان مروان بن الحكم حاضرًا فاقترح على عثمان قتله لقتل دابر المعارضين، غير أن عثمان أمر بضربه "فضربه، وضربه عثمان بنفسه معهم حتى فتقوا بطنه فغشي عليه"⁽²⁷⁾.

وإن كان عمر قد قُتل غدراً فإن عثمان بن عفان، رضي الله عنه،⁽²⁸⁾ تعرض للتعذيب والتنكيل والتمثيل بجسده أيضًا، وكان أول من مارس ذلك عليه هو محمد بن أبي بكر الصديق الذي "دخل عليه وصرعه وقعد على صدره وأخذ بلحيته وقال: يا نعثل⁽²⁹⁾ ما أغنى عنك معاوية وما أغنى عنك ابن عامر وابن سرح، فقال عثمان: لو رأني أبوك رضي الله عنه لبكاني، ولساءه مكانك مني، فتراخت يده عنه، وقام عنه، وخرج فدعا عثمان بوضوء فتوضأ وأخذ مصحفًا فوضعه في حجره ليتحرّم به، ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص⁽³⁰⁾ فوجأ به منكبه... فأدماه عليه ونضح بالدم على المصحف، وجاء آخر فضربه برجله وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه فغشي عليه... ثم دخل آخر ومعه سيف... فوضع ذباب السيف في بطن عثمان فأمسكت نائلة زوجته بالسيف فخر أصابعها ومضى السيف في بطن عثمان⁽³¹⁾. وبقتل الخليفة الثالث وبهذه الطريقة البشعة التي تمثل ذروة العنف والتمثيل بالضحية رغم موقعه السياسي والديني يدخل المجتمع الإسلامي إلى ما يعرف تاريخياً بالفتننة الكبرى التي أدت إلى صراع سياسي عنيف أدى إلى مقتل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه،⁽³²⁾ بطريقة بشعة أيضًا، بالإضافة إلى آلاف المسلمين لأسباب دينية؛ عقائدية ومذهبية، وسياسية واقتصادية؛ كاقتراس الثروة. الأمر الذي أدى إلى انقسام المجتمع سياسيًا ومذهبيًا وثقافيًا، وافتتاح موجة أخرى من العنف السياسي المنفلت.

24- المصدر نفسه، ج2، ص 294 أيضا ابن قتيبة: المصدر سبق ذكره، ج1، ص 29

25- ابن قتيبة: مصدر سبق ذكره، ج1، ص 35

26- قال فيه الرسول "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار بن ياسر"

27- ابن قتيبة: الإمامة، المصدر سبق ذكره، ج1، ص 35

28- كان عثمان بن عفان أحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أجمع على اختيار عثمان وبايعه المسلمون في المسجد بيعة عامة سنة (23 هـ)، فأصبح ثالث الخلفاء الراشدين استمرت خلافته نحو اثني عشر عاما وتوفي سنة 35 هـ

29- النعتل: الذُكر من الضَّبَاع . و النَّعْتَلُ الشَّيْخُ الأحمق

30- المشقص: سَهْمٌ ذو نصلٍ عريضٍ . والجمع : مشاقص .

31- ابن قتيبة: الإمامة، المصدر سبق ذكره، ج1، ص ص 44-45

32- علي بن أبي طالب: 23 ق.هـ - 40 هـ / 600 - 660 م رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي وصوره. وقد ولي الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان سنة (35هـ) فقام بعض أكابر الصحابة بطلبون القبض على قتلة عثمان فتريث ولم يتعجل في الأمر فغضبت عائشة ومعها جمع كبير في مقدمتهم طلحة والزبير فقاتلت علياً في وقعة الجمل سنة (36هـ) وظفر علي فيها ثم كانت وقعة صفين سنة (37هـ) وأقام علي بالكوفة (دار خلافته) إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم غيلة واختلف في مكان قبره فقيل بالنجف وقيل بالكوفة .

انتقم عبد الله بن جعفر الصادق من قاتل عليّ بن أبي طالب، عبد الرحمن بن ملجم المرادي، بأن قطع يديه ثم رجليه ثم أحمى مروداً في النار وسمل به عينيه ثم طلب منه أن يُخرج لسانه ليقطعه، ففزع ابن ملجم، فقال له عبد الله: لماذا فزعت الآن ولم تفزع عندما قطعنا يديك وأرجلك؟ فقال له ابن ملجم: أخشى إن قطعت لساني ألا أستطيع أن أسبّح الله وأنا على قيد الحياة. قطع عبد الله لسانه عنوة، وعندما مات ابن ملجم حرق عبد الله جثته.⁽³³⁾

الدولة الأموية والعنف:

رغم الإنجازات العظيمة التي تحققت زمن الدولة الأموية على مستويات عدة غير أن حكم بني أمية لم يعرف الاستقرار لأسباب عديدة، لعل أهمها كثرة الصراعات السياسية ذات الخلفية القبلية والمذهبية، فتعددت الانتفاضات وحركات التمرد ضد السلطة، وانتشرت في أغلب مناطق تحكّم الأمويين وخاصة في أرض العراق، فشهدت بداية حكمهم اختلافات عميقة حول شرعيتهم،⁽³⁴⁾ فلم ينل معاوية بن أبي سفيان⁽³⁵⁾ الخلافة بإجماع المسلمين إذ بايعه أهل الشام عن طوع واختيار في حين انقسم مسلمو الأمصار الأخرى إلى فريقين:

ويمثل الفريق الأول أقلية بايعت إما عن رضئ وقناعة أو سعياً وراء منفعة وإقراراً لواقع لا قدرة لها على مواجهته ومقاومته، وكان أغلب هؤلاء من أهل الكوفة وكان الواحد منهم يردد "أبايعك واني لكاره لك"⁽³⁶⁾. أما الفريق الثاني فيضم الأغلبية بمختلف آراءها ومذاهبها، ومن بينهم الخوارج والشيعة ورجالات القبائل الذين حرمتهم خلافة معاوية السيادة والخيرات، ومنها قبائل تميم وباهلة وبكر وغيرها التي كانت تقيم في العراق أو المدينة. وأمام تعدد قوى المعارضة تلك ولضرورة المرحلة الانتقالية ولتثبيت دعائم الحكم كان معاوية يحاور ويجادل دون حرج ودون تكبر وهو القائل: "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت..."⁽³⁷⁾ ومن أجل تكريس هذا التوجه ولّى على الكوفة المغيرة بن شعبه (سنة 41 هـ) فأظهر لبناً كبيراً في معاملة الخوارج والشيعة. ويصف الطبري سياسة هذا الأخير مع أهل العراق فيقول: "فأحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، فكان يؤتى فيقال له إن فلاناً يرى رأي الشيعة وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، فكان يرد عليهم قائلاً: "قضى الله ألا تزالون مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا يختلفون فيه".

³³ - ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، 1408 هـ - 1988م، ج8، ص 14

³⁴ - سرور (جمال الدين): الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية. خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، دار الفكر العربي. القاهرة. ط 5. سنة 1975

³⁵ - مؤسس الدولة الأموية توفي عن سن تناهز 78 سنة (60 هـ)

³⁶ - اليعقوبي (أحمد): تاريخ اليعقوبي. دار صادر بيروت 1960، ج2، ص 216

³⁷ - المصدر نفسه، ج2، ص 238

واعتمدت الدولة الأموية لبسط سلطانها على المسلمين عامة والعرب خاصة على ثلاث وسائل هي: المال والعنف والتضليل الإيديولوجي. وكان هذا الأخير من أكثر الوسائل التي اعتمد عليها معاوية لكسب ودّ الناس، وتشير بعض المصادر إلى أن " أكثر الأحاديث الموضوعية في فضائل الصحابة قد افتعلت في أيام بني أمية تقريباً بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم"⁽³⁸⁾. من ذلك أن معاوية بذل للصحابي سمرة بن جندب أربعمئة ألف درهم على أن يروي أن الآية 204 و 205 من سورة البقرة⁽³⁹⁾ قد نزلت في علي بن أبي طالب، كما استخدم معاوية المحدثين والرواة لتمجيد بني أمية، خاصة عثمان، من ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إن الله ائتمن على وحيه ثلاثاً أنا وجبريل ومعاوية"، وأن النبي صلى الله عليه وسلم، ناول معاوية سهماً فقال له: " خذ هذا حتى تلقاني في الجنة"⁽⁴⁰⁾.

ومع استمرار المعارضة وتمددتها اجتماعياً وجغرافياً بالتوازي مع تطور صيغ وأشكال مواجهتها للسلطة الأموية انتقل معاوية الى توسيع رقعة العنف، فحاول اجتثاث كل ما يتصل بعلي بن ابي طالب، من ذلك أنه أمر عماله بشتم علي وذمه ومنع الناس على تسمية أبنائهم باسمه، وبلغ الخوف بالناس حدًا جعل الرجل يفضل أن يقال عنه أنه كافر ولا يقال عنه من شيعة علي، وكانوا يخافون من نطق اسمه حتى في ما يتعلق بأحكام الدين، فكانوا يقولون: " روى أبو زينب أو أبو تراب أو قال الشيخ"⁽⁴¹⁾ وإمعاناً في تكريس تلك السياسة وتعميمها عين معاوية زياد ابن أبيه والياً على البصرة سنة 45 هـ، وضم إليه سجستان والهند والبحرين وعمان، ولما مات المغيرة سنة 53 هـ ضم إليه الكوفة وأطلق معاوية يد زياد على جميع تلك الربوع التي تنتشر فيها قوى المعارضة الشيعية والخوارج ومن غيرهم.⁽⁴²⁾ وعند حلول زياد إلى البصرة خطب خطبة بتراء تنضح تهديداً وعنفًا، ومما جاء فيها "أقسم بالله لأخذن الولي بالولي والمقيم بالطاعن والمقبل بالمدير والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيداً"⁽⁴³⁾. ويذكر أن ابنه عبيد الله كان لا يدع بالبصرة أحدًا ممن ينهم برأي الخوارج إلا قتله حتى قتل بالتهمة والظنة تسعمئة رجل⁽⁴⁴⁾، وفي سبيل ضبط الأمن وملاحقة المعارضين من سكان البصرة وضع زياد نحو أربعمئة شرطي، ومما يذكره الطبري أن قائد شرطة البصرة الصحابي سمرة بن جندب، قبل تعيينه نائباً له على البصرة، قد قتل حوالي ثمانية آلاف شخص من الكوفة وحدها،⁽⁴⁵⁾ وعلى هذا النهج الذي خطه معاوية سار جميع خلفاء بني أمية باستثناء الخليفة عمر بن عبد

38- ابن أبي الجديد المدائني: شرح نهج البلاغة تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1965. نقلا عن الشمس الدين(مهدي): ثورة الحسين، ط 5 دار التعارف للمطبوعات بيروت 1978، ص 109

39- "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى في الأرض ليفسد ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد"

40- شمس الدين(مهدي): ثورة الحسين...مرجع سبق ذكره، ص 112

41- الطبري، تاريخ...مصدر سبق ذكره، ج4، ص 198

42- المصدر نفسه، ج4، ص 134.....

43- المصدر نفسه، ج4، ص 166.....

44- الدينوري: الأخبار الطوال طبعة عبد المنعم القاهرة 1960، ص 270

45- المصدر نفسه، ج4، ص 176

العزير، فكان الاستبداد والعنف ميزتان ملازمتان للحكم الأموي، فهذا الوليد بن يزيد (ت 126هـ) أحد خلفاء بني أمية المتأخرين يصف الحكم الأموي قائلاً:

فدع عنك اذكارك آل سعدي فنحن الأكثرون حمى ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلاً وما نالوهم إلا خبالا

1. الجسد والعنف:

يتخذ العنف أشكالاً مختلفة، وأحد أشكاله هو التعذيب الذي يعتبره ميشيل فوكو فناً يرتبط بنمط الإصابة الجسدية، وبكمية وزخم الأوجاع إضافة لنوعية الجريمة وخطورتها، وشخصية المجرم ونوعية رتبة ضحاياه وموقعهم من السلطة،⁽⁴⁶⁾ كما يعتبر التعذيب تكنولوجيا تهدف السلطة من وراء استخدامها إلى ترويض الجسد البشري واستثماره وإخضاعه واستعباده.⁽⁴⁷⁾

وقد اتخذ العنف الذي مارسته الدولة الأموية عدة أنواع وأشكال، فمن الضرب الخفيف إلى الضرب حتى الموت إلى تقطيع أطراف الجسد إلى السحل وسمل العيون وصم الأذان وجدع الأنوف وجبّ المذاكير، أي الأعضاء التناسلية للرجل، والحرق والقتل والتمثيل بالجنّة... الخ، وعادة ما تمارس عملية التعذيب والتنكيل علناً وتتنوع فضاءات "المشهد العقابي"⁽⁴⁸⁾ حسب الظروف السياسية العامة أو حسب الأهمية التي يمثلها الضحية المستهدف، فمن مكان ضيق كصحن من صحن قصر الخليفة إلى السجن أو الشارع... الخ.

الضرب والجلد:

يمثل أدنى وأخف أشكال العنف المادي الذي يتعرض له جسد الإنسان، ويكون عادة بالجلد، والهدف منه الترهيب والتخويف الخفيف، ولكن قد يتحول إلى ضرب مبرح يؤدي بحياة المستهدف، أما الأداة المستعملة في ذلك فهي عادة عصا خشبية غليظة أو العمود الحديدي، مثل المشقص؛ وهو نصل عريض، أو الجزر؛ وهو عمود حديدي، أو المضرسة؛ وهي آلة ثقيلة تكسر الحجارة عادة.⁽⁴⁹⁾ ومن ذلك ما أمر به عبد الملك بن مروان عامله على المدينة هشام بن إسماعيل عندما استشاره بما يفعل بسعيد بن المسيّب الذي رفض البيعة للوليد وسليمان فأجابته: "ما حاجتك أن تكشف عن سعيد، أو تأخذه ببيعة، ما كنا نخاف من سعيد؟ فأما أن تظهر ذلك

⁴⁶- فوكو (ميشيل): المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة د.علي مقلد ومراجعة وتقديم مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990، ص 71

⁴⁷- أوبير (دريفوس) و بول (رابينوف): ميشيل فوكو، مسيرة فلسفية، ترجمة جورج أبي صالح منشورات مركز الإنماء العربي، بيروت لبنان، ص 104

⁴⁸- استعمل ميشيل فوكو هذا المصطلح بكثافة في كتابه "المراقبة والمعاقبة"، الذي يعني علنية ممارسة العنف والتعذيب الذي تمارسه السلطة بهدف تخويف الناس

⁴⁹- قمنا بتحديد هذه الأدوات المستعملة من خلال ما رواه الطبري في كتابه من أحداث ذات علاقة بالدولة الأموية ورجالها...

وانشر أمره في الناس فادعه إلى البيعة فإن أبي فاجلده مئة سوط أو احلق رأسه ولحيته وألبسه ثيابًا من شعر وأوقفه في السوق على الناس لكي ما لا يجترئ علينا أحد غيره"⁽⁵⁰⁾. ومن ذلك ما تعرض له عثمان بن حنيف عامل علي بالبصرة إذ أمر طلحة بن الزبير ومروان بن الحكم والسيدة عائشة بقتله، فناشدهم الله فأشير بضربه بالسوط فضربوه وفتقوا لحيته ورأسه حتى حاجبيه وأشفار عينيه ثم حبسوه"⁽⁵¹⁾. كما أمر زياد شرطته بضرب أحد الخوارج وهو "صيفي بن فسيل" فضربوه حتى لزم الأرض ثم أمر أن يدفعوا في رقبتة حديدًا وأن يلقيه في السجن⁽⁵²⁾، وأثناء التحقيق مع المختار بن عبيد وضع عبيد الله بن زياد القضيب على وجهه " فخبط به عينيه فشترها وأمر به ووضع بالسجن"⁽⁵³⁾.

ومن الأدوات التي استعملت للضرب نذكر العكاز، من ذلك أن عبيد بن أبي زياد قد هجم على أحد الأفراد المتهمين بإيواء معارض كان يريد قتله بعكازه فضرب به وجهه" فندر فارتز في الجدار ثم ضرب وجهه حتى كسر أنفه وجبينه"⁽⁵⁴⁾. وقد يؤدي الضرب المبرح المسلط على الضحية إلى الموت، ومن ذلك أن زياد قد ضمن مال ودم عمير بن زياد، أحد الخوارج، وهو جريح إلا أنه أمر به فأوقر حديدًا، ثم أخذته الرجال ترفعه حتى إذا بلغ سورها القوه فوقع على الأرض، وفعلوا به ذلك مرات حتى قضى أمره"⁽⁵⁵⁾. ولم يسلم من رجال السلطة الأموية حتى الشعراء إذ اتهم الشاعر يزيد بن مفرع الحميري بهجاء زياد وبني زياد وآل سفيان، فقام عبيد الله بن زياد بتعذيبه " فسقاه نبيذًا حلواً خلط معه التبرذ، وهو راسب زئبقي أصفر، فأسهل بطنه فطيف به وهو على تلك الحال، ثم قرن بهـرة وخنزيرة فجعل يسلم والصبيان يتبعونه ويصيحون، وألح عليه ما يخرج منه حتى أضعفه فسقط فأمر عبيد الله بغسله فلما اغتسل قال:

يغسل الماء ماء فعلت وقولي راسخ منك في العظام البوالي

فرده عبيد الله إلى السجن⁽⁵⁶⁾.

تقطيع أطراف الجسد:

وهي الممارسة التي تمثل ذروة إيذاء الضحية وتسبب للمستهدف أوجاع وآلام، وقد تؤدي أيضًا إلى تشويه أو إعاقة أحد أجزاء الجسد أو إلى الموت أيضًا. ويحفل تاريخ دولة الخلافة بنماذج لا تعد ولا تحصى من هذه

⁵⁰- ابن قتيبة: الإمامة، المصدر سبق ذكره، ج 2، ص 4، أيضا: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 2، ص 377

⁵¹- ابن خلكان: وفيات الأعيان، المصدر نفسه، ج 3، ص 18

⁵²- الطبري، تاريخ...مصدر سبق ذكره، ج 4، ص 198

⁵³- المصدر نفسه، ج 4، ص 442

⁵⁴- المصدر نفسه، ص 296

⁵⁵- المصدر نفسه، ص 196

⁵⁶- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره، ج 6، ص 349-350

الممارسة، من ذلك أن عبید الله بن زياد قد استفرد بعروة بن أديّة وهو أحد معارضي السلطة فـ"أمر بقطع يديه ورجليه ثم سأله كيف ترى نفسك قال: أرى أنك أفسدت دنياي وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها"⁽⁵⁷⁾.

القتل والاعتقال:

وهي العملية الأخيرة التي تلجأ إليها السلطة للتخلص من معارضيها وتصفيتهم جسدياً. وتختلف عمليات القتل بحسب الظروف وأهمية الضحية. ويمكن أن يكون القتل فردياً أو جماعياً وما يهمننا هنا هو القتل الذي تأمر بتنفيذه السلطة على كائن أعزل وغير قادر على الدفاع عن نفسه، وهي العملية الأكثر تواتراً وأقل كلفة وأقل ضجيجاً بالنسبة إلى السلطة، وكان معاوية بن أبي سفيان يستخدم الاعتقال كأفضل وسيلة للتخلص من معارضيها، فهو القائل "إن لله جنوداً منها العسل"⁽⁵⁸⁾ وهو الذي دس السم للحسن بن علي ولسعد بن أبي وقاص فماتا، ووضع في آنية الأكل التي قدمها إلى خالد بن الوليد فمات مباشرة⁽⁵⁹⁾.

القتل الجماعي:

تواتر هذا النوع من العقوبة زمن حكم الأمويين وكان موجهاً ضد معارضيهم من الشيعة والخوارج الذين كانوا يخرجون إلى القتال برفقة نسائهم، فكان لا يتردد زياد بن أبيه في قتلهم جميعاً ومن أمثلة ذلك أيضاً أن بشر بن أبي أرطاة قد أقام بالمدينة شهراً يستعرض الناس ويقتل كل من يقال إنه أعان علياً على عثمان، فوجد قوماً من بني كعب وغلماهم على بئر لهم فألقاهم جميعاً في البئر.⁽⁶⁰⁾

دفن الضحية حياً:

أرسل معاوية بن أبي سفيان عبد الرحمن بن حسان العنزي إلى زياد، وأمر بتعذيبه ثم قتله شرّاً قتلة، فلما وصل أمر زياد بدفنه حياً⁽⁶¹⁾، وهو الأمر نفسه الذي تعرض له خالد بن عبد الله القسري أمير العراق زمن هشام بن عبد الملك، إذ قام يوسف بن عمر الثقفي، ابن عم الحجاج، بحبس خالد وعماله "وحاسبه وعذبه، فوضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقصفتا، ثم رفع الخشبتين إلى ساقه وعصرهما حتى انقصفا ثم إلى وركيه ثم إلى صلبه فلما انقصف صلبه مات... وكان ذلك في المحرم سنة ست وعشرين.⁽⁶²⁾

⁵⁷- الطبري، تاريخ...مصدر سبق ذكره، ج4، ص 232

⁵⁸- ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب المصرية - القاهرة 1930، ج1، ص 201

⁵⁹- الطبري، تاريخ...مصدر سبق ذكره، ج4، ص 232

⁶⁰- المصدر نفسه، ج4، ص 134

⁶¹- المصدر نفسه، ج4، ص 206

⁶²- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره، ج 2، ص 229

منع التجول ليلاً:

وكان زياد أول من أصدر أمراً بمنع التجوال ليلاً " فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي من بيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له إياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه"⁽⁶⁹⁾. وسهر على تطبيق ذلك الإجراء عبد الله بن حفص قائد شرطة معاوية، ومما يحكى عنه أنه وجد أعرابياً قادمًا من توه إلى المدينة، ولا علم له بالأمر، ورغم اقتناع قائد الشرطة بكلام الأعرابي غير أنه لم يتردد في قتله⁽⁷⁰⁾ كما يعتبر زياد ابن أبيه أول من أخذ بالظنة، وعاقب الناس على الشبهة⁽⁷¹⁾.

الإقامة الجبرية:

سير زياد ابن أبيه الحطيم الباهلي، وفرض عليه الإقامة الجبرية في إحدى بيوتات أقاربه، ولما ترك الإقامة تلك جيء به إليه فقتله وألقى بجثته في عشيرته⁽⁷²⁾.

الإبعاد أو النفي:

مارس الحكام المسلمون هذه العقوبة ضد المسلمين والعرب، دون أهل الذمة، من ذلك ما قام به عثمان بن عفان من إبعاد معارضيه إلى الشام، وما تعرض له الشيعة والخوارج على يد الخلفاء الأمويين⁽⁷³⁾. ثم ما مارسه العباسيون ضد أفراد تلك العائلة، وقد اكتوى بنار تلك العقوبة أيضاً بعض المفكرين العرب المسلمين الذين وقفوا موقفاً معارضاً للسلطة أو الذين جاهاوا بآراء دينية وفكرية لم يستسغ مضمونها الحكام، يظهر أن زياد ابن أبيه كان من الأوائل الذين استخدموا الإبعاد في الدولة الأموية حيث يشير الطبري إلى أنه سير الخطيم الباهلي، أحد القادة الخوارج، إلى البحرين وفرض عليه الإقامة الجبرية في إحدى بيوتات أقاربه، ولما ترك الإقامة تلك جيء به إليه فقتله وألقى بجثته إلى عشيرته⁽⁷⁴⁾.

⁶⁹- الطبري: تاريخ... المصدر نفسه، ج4، ص 166

⁷⁰- المصدر نفسه، ج4، ص 167

⁷¹- المصدر نفسه ونفس الصفحة

⁷²- المصدر نفسه، ج4، ص172

⁷³- سرور(جمال الدين): الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية. خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة، دار الفكر العربي. القاهرة. ط 5، سنة 1975، ص 116، ص 268

⁷⁴- الطبري، تاريخ... مصدر سبق ذكره، ج4، ص 172

هي سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم على ارتكابها غيره⁽⁷⁸⁾. وقد سئل وهو على فراش الموت: كيف تجدك؟ فأجاب: "سفر طويل وزاد قليل، فويلي إن لم يرحمني الجبار" وفي الخطبة التي ألقاها في المسجد الجامع بالكوفة قدم الحجاج نفسه كالتالي: "أن أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عودًا واصلبها مكسرًا فرماكم بي..."⁽⁷⁹⁾. وكان الحجاج وفيًا لكلماته تلك، وتجمع المصادر المختلفة على أنه قتل في يوم الزاوية⁽⁸⁰⁾ أحد عشر ألف شخص من معارضي بني أمية⁽⁸¹⁾.

وما تميز به الحجاج عن غيره من ولاة بني أمية هو ساديته المفرطة وتلذذه العجيب بتعذيب ضحيته حتى الهوس، من ذلك أنه أمر بتعذيب فيروز بن الحصين أحد زعماء الخوارج بأنواع شتى من العذاب، وكان من جملة ما فعله به "أن شدّ عليه القصب الفارسي المشقوق ثم جرّه على كامل جسده وبعد ذلك نضح عليه الخل والملح ثم أمر بقتله"⁽⁸²⁾، وفي سنة 74 هـ أقام بالمدينة ثلاثة أشهر فعبث بأهلها واستخف بأصحاب الرسول الكريم "فختم في أعناقهم وأيديهم لرفضهم مبايعة الخليفة"⁽⁸³⁾. ومن مظاهر قسوته أنه لا يعبأ بالوضع الصحي لضحيته من ذلك أنه حجز يزيد بن المهمل وأخوته وجعل عليهم حرسًا وأخذ يعذبهم الواحد تلو الآخر، وكان يزيد يصبر صبرًا حسنًا وهو ما كان يغيظ الحجاج فقبل له "إنه رمي بنشابة فثبت نصلها في ساقه فهو لا يمسه شيء إلا صاح، وإن حركت أدنى شيء سمعت صوته فأمر أن يعذب ويدهق ساقه؛ أي يكسر ويقطع، فلما فعل به ذلك صاح فلما سمعت أخته، وكانت زوجة الحجاج، صياحه صاحت وناحت فطلقها"⁽⁸⁴⁾. وكان الحجاج إن سمع بنواح في دار هدمها فلما "مات ابنه وأخوه حنّ إلى النوح وكان يعجبه أن يسمعه"⁽⁸⁵⁾. وكان ابن عمر من أعلم من تبقى من الصحابة بمناسك الحج، وعادة ما يتقدم الحجاج في المواقع بـ"عرضة" وإلى المواقع التي كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد وقف عليها فكان ذلك يعز على الحجاج فأمر رجلاً معه حرببة يقال أنها مسمومة، فلما دفع الناس من عرفة لصق الرجل ابن عمر وأمر الحرببة على قدمه، وهي في غرر رحلته فمرض فيها أيام فدخل عليه الحجاج يعوده فقال من سمك؟ فقال أنت أمرت بإدخال السلاح في الحرم... فلبث الرجل أيامًا ثم مات وصلى عليه الحجاج⁽⁸⁶⁾.

78- المصدر نفسه، ج 2، ص 30

79- المصدر نفسه، ص 33

80- يوم الزاوية: وهي الوقعة الشديدة في البصرة التي اقتتل فيها عسكر الحجاج وعسكر ابن الأشعث في المحرم سنة 82، وأسفرت النتيجة عن انهزام عيد الرحمن وجيشه إلى الكوفة وقتل الحجاج يوم الزاوية بعد الهزيمة أحد عشر ألفًا خدعهم بالأمان، وأمر مناديا فنأدى لا أمان لفلان بن فلان فسمى رجلاً، فقال العامة: قد أمن الناس فحضرنا عنده فأمر بهم فقتلوا

81- الطبري، تاريخ... مصدر سبق ذكره، ج5، ص ص 182-183

82- المصدر نفسه، ج5، ص 182

83- المصدر نفسه، ج5، ص 35

84- المصدر نفسه، ج5، ص 231، أيضا ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره ج6، ص 291

85- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره، ج 2، ص 50

86- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سبق ذكره، ج 4، ص 31

ومن الطرائف الدالة على عنف الحجاج ورعب الناس منه ما أورده أحدهم قائلاً "هربت من الحجاج حتى مررت بقرية فرأيت كلباً نائماً في ظل حب، أي زير، فقلت في نفسي ليتني كنت كلباً لكنت مستريحاً من خوف الحجاج، ومررت ثم عدت من ساعتى فوجدت الكلب مقتولاً فسالت عنه فقيل: جاء أمر الحجاج بقتل الكلاب".⁽⁸⁷⁾

خاتمة:

تؤكد النصوص القانونية الوضعية الحديثة على احتكار سلطة الدولة، أي دولة، لممارسة العنف دون غيرها من الأطراف السياسية والاجتماعية، غير أن هذا الأمر لا ينطبق بالضرورة على المجتمعات "القديمة" والأنظمة السياسية ما قبل الدولة الوطنية الحديثة (الدولة الأمة)، ومنها الدول التي استندت في وجودها على الدين الإسلامي أو مسيحي، إذ بينت البحوث والدراسات التاريخية السلوك العنيف الذي اعتمدته هذه الدول لفض المشاكل المختلفة مع رعاياها دون اعتبار للقيم الدينية التي تستند عليها في حكمها، وتدعي العمل من أجل تطبيق مبادئه السمحة، وتمثل دولة الخلافة الإسلامية عبر العصور، ومنها الدولة الأموية، أنموذجاً لممارسة هذه الدول التي تتعارض في جوهرها مع روح الدين الإسلامي الحنيف، ولكن رغم ذلك لا بد من التأكيد على أن العنف الذي مارسه الدولة في التاريخ الإسلامي يبدو أقل حدة مما مارسه دول أخرى، ذات مرجعية دينية، معاصرة لها.⁽⁸⁸⁾

⁸⁷- العلوي(هادي): المستطرف الجديد، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية، ط2، قبرص، ص 92

⁸⁸- ميتز(أدام): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابوربده، ط 4 دار الكتاب العربي بيروت 1967، ج2، ص 190



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com